قراءة في ومضة "تجربة" لنسيم السعداوي

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر

سأتناول في هذه الدراسة ومضة "تجربة" للكاتب التونسي نسيم السعداوي، وها هو نص الومضة:

نفر المكان. لايزال يخشى طعم هذه الفصيلة من الفلفل. آخر مرّة تذوقها، انزوى وبكى.

ومضة "تجربة" للكاتب التونسي نسيم السعداوي ومضة قصصية مروية بضمير الغائب يقدم لنا فيها الكاتب تجربة مرت بها الشخصية، ومازال أثر هذه التجربة باقيا في حياتها كعلامة غير قابلة للانمحاء أو الزوال.

تبدأ الومضة بالفعل "نفر" (الذي يحتاج من وجهة نظري إلى حرف الجر "من" بعده، فالصياغة بهذا الشكل تقول إن المكان هو الذي ينفر)، ويعني ابتعد عن أو ترك أو بغض أو كره، وكل هذه الدلالات مرتبطة بعلاقته بالمكان.

وبالرغم من ورود كلمة المكان بألف ولام التعريف – وهي مذكورة لأول مرة في الومضة – يمكننا أن نتبين دلالة التعريف هنا، فهو تعريف مقترن بما سيأتي لاحقا في الومضة، إذ يتم ذكر تجربة معينة قرينة لهذا المكان في وجدان الشخصية.

وبعد أن يبرز الراوي النفورَ الذي تحس به الشخصية، ينتقل للوراء في الماضي لينقل لنا سبب هذا النفور من خلال تسليط الضوء على المنظور السردي الداخلي الخاص بالشخصية هنا، وهذا المنظور يجعلنا نرى السبب الذي يجعل هذه الشخصية تنفر من هذا المكان. وهنا تستحضر هذه الشخصية أثرا سابقا تركه عنصر من عناصر هذا المكان – نوع من الفلفل الحار – في نفسه ولسانه، والاستحضار هنا يدل على أن التجربة الماضية التي من المفترض أنها انقضت بانقضاء وقتها تصر هذه الشخصية على جعلها حاضرة في تكوينها لدرجة أنها صارت ترتبط ارتباطا شرطيا بالمكان، وكأن الشخص اختزال المكان كله

في هذا الفلفل الحار. ويستعمل الراوي هنا الفعل "يخشى" الذي يدل على الخوف، وهو خوف أقرب للخوف المَرضي الذي تحوَّل إلى فوبيا لدى الشخصية.

وبعد أن يركز الراوي على إحساس الشخصية بالمكان وعلى استحضار هذه الشخصية لتجربة سابقة لها في هذا المكان، ينتقل لينقل لنا من خلال الاسترجاع أو الرجوع للوراء في الزمن على مستوى الحدث – الفلاش باك: فهذه الشخصية كانت قد تذوقت الفلفل الحار من قبل في هذا المكان، وكان رد فعلها إزاء هذا التذوق الانزواء والبكاء. والانزواء يدل على الاختلاء والانعزال والانكماش، وكلها سمات تقترن بشخصية انسحابية أو هروبية أو سلبية لا تستطيع مواجهة المواقف التي تمر بها، أو تستطيع أن تتعامل مع هذه المواقف على قدرها ووفقا لملابساتها الخاصة، وهذا يعزز ما ذكرته أعلاه من أن خوفه أو خشيته تحولت إلى فوبيا غير منطقية، فليس كل شخص يأكل فلفلا حارا يكره الفلفل بوجه عام ويكره المكان الذي يوجد فيه هذا

الفلفل. كما أن رد الفعل الثاني لهذه الشخصية يعزز هذه الدلالات، فبكاؤه يؤكد ضعفه المقترن بانسحابيته ويوحي بأنه شخص غير قادر على التعامل مع المواقف السلبية التي قد يمر بها في حياته. فبوجه عام، لا يُعتبر البكاء عيبا أو ضعفا في حد ذاته، ولكن عندما يقترن هذا البكاء بتجربة غذائية أو طعامية قد يمر بها أي منا يوميا، فإن هذا يدل على أنه شخصية مبذّرة تسيء استعمال البكاء وتنفقه في مواضع ليست أهلا له.

وهنا نعود إلى عنوان هذه الومضة القصصية. العنوان "تجربة" عنوان له دلالة كبيرة من وجهة نظري، وقد يكون مقصودا منه الإشارة إلى التجارب المعملية التي يتم إجراؤها على الحيوانات المختلفة والتي اكتشف العلماء من خلالها فكرة الاقتران الشرطي الذي تُبرزه الومضة هنا. وأقصد به أن الحيوان الذي يتم إجراء التجربة عليه ويتعرض لمؤثر ما، يقرن سلوكه بهذا المؤثر: كلما تعرض للمؤثر سلك نفس السلوك. وهذا يرتبط بالكائنات الأقل ذكاء أو أقل وعيا من

الإنسان، فالإنسان لديه القدرة على التفكير والتأمل وإدخال أي تجربة يمر بها في نطاق الوعي بحيث يتدبرها، ويدرك من خلال هذا التدبر أن أي تجربة لها ملابساتها الخاصة، وأن أي تجربة لا يحق لها أن تجعلنا نقوم بتعميمها لنطبّقها على سياقات أخرى أو نخرجها من إطار سياقها الضيق – أكل الفلفل الحار هنا – إلى السياق الأكبر أو العام – النفور من المكان ككل هنا. وأظن أن هذه هي الرسالة التي تسعى الومضة لإيصالها للقارئ: لا تجعل أي تجربة سلبية تمر بها في حياتك تؤثر بالسلب على انفتاح شخصيتك وعلى وعيك كي لا تجعلك أسيرا لها وكي تصير صالحا للتعامل مع التجارب وفقا لمنطلقاتها الخاصة وملابساتها المحدودة في المكان والزمان. ليس معنى أن شخصا من بلد ما تصرف معك تصرفا سيئا أن تقول بأن كل أبناء ذلك البلد سيئون؛ ليس معنى أن الفلفل الذي ينبت في مكان ما حار ولا تستطيع أن تحتمله أن هذا المكان وكل ما ومن فيه سيؤذيك.

وعندما نتأمل نص الومضة، نجد أن الجملة الأخيرة فيها زائدة، لأن الومضة القصصية بوجه عام لا تحتمل الشرح أو العبارات الإضافية التي يمكن للقارئ أن يستنبط معناها من السياق. فأول كلمتين من الجملة الثانية من الومضة – "لايزال يخشى" – كافيتان للدلالة على تجربة الشخصية سابقا مع ذلك الفلفل الحار، فالخشية والفعل "نفر" في الجملة الأولى يشيران إلى ارتباط شرطي في ذهن الشخصية بين المكان والفلفل الحار، وليس القارئ في حاجة إلى الإفصاح عما تم الإيحاء به من قبل في الومضة، فالإيحاء والإضمار من السمات المطلوبة في أي ومضة. والإيحاء والإضمار يتناقضان مع الحشو والإطناب والتصريح في موضع لا يحتاج إليه، فما يمكن فهمه أو استنباطه لا حاجة للإفصاح عنه إلا في الدراسات العلمية أو الأدبية الفكرية التي تسعى لتوصيل معلمة مباشرة للقارئ، ففي هذه الحالة يُفضَّل التصريح كي لا يلتبس المعنى لدى

القارئ وكي يتسع جمهور القراء، لأن هذا التصريح سيجعل النص أو الكتاب قابلا للاستيعاب لدى عدد أكبر من القراء.